آنـا عكاش

الفـــرح

قصص قصيرة

منشورات وزارة الثقافة ـ الـهيئـة العامـة السوريـة للكتاب
(صدرت الطبعة الورقيـة عام ١٩٩٨)

الإهداء

إلى يافا

الصغيرة

الحلم الذي

لم يتحقق

بعد...

الفرح

لكلٍّ منّا فرح...

فرحُ بمزقٍ من صور الماضي...

وفرحٌ بأشياء صغيرة من الحاضر...

وفرحُ ثالث بامتلاك أملٍ في امتلاك شيء من المستقبل..

آخ... يا لهذا اليوم المشؤوم.. في البداية تلك التنكة الثقيلة التي وقعت على قدمي ثم هذا الثلج..

– يارب...

قالها وهو يرفع القمامة برفشه ويضعها داخل العربة.

يا إلهي ما هذا البرد؟ أكاد أتجّمد والعمل يصبح أصعب عندما تتجلّد الطرقات، وهذه العربة اللعينة التي تتمايل وتتزحلق مصدرة صوتاً مزعجاً.. تْرِكْ تْرِكْ.. حتى عندما أنام يظل هذا الصوت ناقراً أذنيّ.. ترك.. ترك.. ترك... مللت. مالك يا عبد الله تتذمر؟

هل اشتقت لعمل الصيف وروائحه التي تنخز الأنف؟ آه.. هذه سنّة الحياة وإرادة الله ولكن لماذا – آخ ما هذا؟ زجاج؟! إن يومي مشؤوم من أول لَيْلِهِ والآن هذا الزجاج؟ إن الناس بلهاء حين يقومون برمي الزجاج المكسور في القمامة، إنهم لا يفكرون أن هناك أناساً آخرين يلمّون أوساخهم من الطرقات في أنصاف الليالي – ولكن لماذا هنالك أناس أغنياء وأناس فقراء وزبالون يلمون القمامة، هاه؟ لماذا؟ لا أدري! ربما لأنه إن لم يكن هناك من يلمّ القمامة لغرق هذا العالم كله في الأوساخ وانتشرت الأمراض. آه.. مالك يا أبا محمد تتذّمر اليوم؟ لقد كنت طوال عمرك راضياً بهذا العمل. عشرون عاماً وأنت تعمل به ولا تتذّمر. الله يخزي الشيطان لهذه الأفكار التي تراودك.

الله يعطي العافية لصبيحة.. فهي تتحملني كثيراً. يكفي أنها تزوجتني وأنا زبال من يوم يومي. المثقفون يقولون عامل نظافة ولكن.. أنا زبال وصبيحة تزوجتني وأنجبت لي سبعة أطفال.. ولكن بصراحة لو لم أكن زبالاً بل.. رجلاً غنياً لتزوجت مّرة أخرى.. إن جارتنا المطلقة أم فارس صغيرة وجميلة.. آه من صدرها آه.. ليس كصدر صبيحة المتهدل.. صحيح عندها ولد لكن.. الله يخزي الشيطان! ما بالك يا عبد الله؟ لماذا تفكر هكذا!؟

يالهذه القطة المسكينة.. إنها متجمدة من البرد... لا بد أنها ميتة؟!

رفسها بقدمه فلم تتحرك، فرفعها ووضعها في العربة، ثم دفعها بصعوبة وتابع طريقه.

لو لم نكن بشراً لربما مُتنا في الشوارع كهذا الحيوان، ولرفسنا الزبالون بأرجلهم ثم وضعونا في عربة القمامة.

على كلُّ القطط حيوانات شريرة.. أكره القطط ولكن... هذا البرد...

هذا الولد خالد قد أهلكني، فتارة يطلب منه المعلمّ قلماً وتارة دفتراً، ثم أشياء لا فائدة منها كورق الأشغال.. وما لزوم ورق الأشغال هذا؟ هاه؟ متى سأنتهي من كلِّ هذا؟ ما فائدة هذا العلم؟ إنه في الصف الثاني ويكلفني الكثير فماذا لو أصبح في الخامس أو السادس؟ لا .. لا يا أبا محمد لا تفكر هكذا لن يستمر الوضع طويلاً، سنتان وأجد له عملاً عند أبو مصطفى في المطعم، وبعدها زرقه على الله يدبّر نفسه بنفسه.

وهذا الكبير محمد يريد أن يُطلع روحي هو الآخر بعد أن ترك عمله عند الحاج، ويريد أن يتعَلّم ميكانيكي عند أبو عدنان في الصناعة. عقله لن يكفيه لتعلّم الصنعة. فقط يضيّع المال ويجعلني أصرف عليه بينما هو يتعلم.

كان عندنا دخلان والآن أصبح دخلي فقط... وما الذي يمكن أن يعمله ها.. ها.. إن أعطيته لصبيحة صرفته خلال يومين. ولكن قريباً ستتزوج عائشة ونقبض المقّدم، عندها سيتحسن الوضع. إن صبيحة هذه امرأة ماكرة استطاعت أن تدبّر أمر البنت. أخي يقول: حرام إنها صغيرة.

وما النتيجة؟ النتيجة نفسها الآن أو بعد سنتين أو عشر سيأتي نصيبها، وماذا لو كان خطيبها أكبر منها بعشرين عاماً أو أكثر؟ ماذا في ذلك؟ الحمد لله أن دخله مستقر وليس كمحمد. أن يكون المرء آذناً في شركة حكومّية فذلك شيء جيّد. ثم ستبدأ عائشة بإنجاب الأطفال لزوجها. لا أعتقد أنني سأتفرغ لأولادها، فأولاد شفيقة وغدير يملؤون مكان نصف أولاد الحارة.

الله لا يسامح جاسم على ما فعله بي.. صار له خمس سنوات ولا أعرف متى يخرج.

أمّا محمود.. ملعون أبوه الذي أتى به.. ولدي وليس ولدي.. استنكرني.. زبال... لماذا مكتوب عليّ في كتابك يا رب أن أكون زبالاً؟ لماذا؟ أستغفر الله يا عبد الله لا يجوز.. دائماً كان يردد.. الخليج، السعودية.. ماذا له هناك؟ لم يبعث حتى الآن بأي قرش.

يا رب.. الآن علّي أن أسير ساعة كاملة لإفراغ العربة. يا ترْى هل سألحق صلاة الصبح أم لا؟ سألحق.. طوال عمري وأنا ألحق، وطوال عمري وأنا أفكر هل سألحق أم لا؟

– أهلاً أبو راكان!!

– كيف أنت أبو محمد؟

– الحمد لله! هل أنهيت منطقتك؟

– نعم ولكن.. تعال، تعال فعندي لك شيء، جئت في وقتك يا رجل.

– ما هو؟

بعد أن اقترب قال هازاً رأسه باستنكار:

– ما هذا يا أبا راكان؟ هل تأكل ما يرميه الناس؟ الله كريم ورزاق هكذا لا يجوز.

– كفاك كلاماً أبو محمد تعال واجلس.. هذا كباب، كلُ.. كلُ.. لا تخف، لن تموت، فهذا كباب حقيقي من المطعم. وكما تعلم فهذا المطعم يقع ضمن منطقتي، لذلك دائماً أجد شيئاً لذيذاً، دجاجاً مشوياً على الفحم.. بطاطا مقلية.. سمكاً وأشياء أخرى كثيرة. لن تموت يا أبا محمد، على الأقل إن مت ستموت شبعاناً. ما بك واقف تنظر إليّ؟ تعال اقترب.

– منذ متى وأنت تفعل هذا يا أبا راكان؟ عشرون سنة وأنا في العمل، وكذلك عندي سبعة أولاد ولم يخطر ببالي يوماً أن أفعل مثلك. إن الله مع الصابرين ثم .. سنأكل ما نشاء في الجنة، الله كريم، هذه سنته أن نكون فقراء في الدنيا ثم ننال أعلى الدرجات في الآخرة.

قرقر.. قرقر.. اندفع صوت الجوع الغاضب من معدة أبي محمد.

– تعال اقترب أبا محمد وكفال تنظيراً، هل ستشوي لك أم محمد كباباً عند عودتك إلى البيت هاه؟ أم عندكم اليوم محاشي؟ تعال.

جلس أبو محمد قرب زميله وبتردد مدّ يده إلى قطع اللحم الباردة، ثم بدأ بالتهام اللحم بشراهة وقال بفمه المملوء:

– أتعرف أبو راكان؟ الحق معك، لم أتناول الكباب حتى بارداً منذ سنوات كثيرة مضت، ولكن لا بأس، مادام قد بقي لي عشر سنوات لأتقاعد.

١٩٩٣/٢/١٤

السعادين الملونة

المطر يهطل بغزارة وكأن الله يصب دلاء غضبه على رؤوس البشر. والبرق يضيء السماء بوميض أبيض، فتظهر الغيوم المتكاثفة والأشد سواداً من السماء، يتبعه صوت الرعد الشبيه بالطرق على تنكة صدئة. حتى القمر.. اختبأ وراء الغيوم خوفاً من ثورة السماء.

الريح تعصف بعنف، محاولة احناء رؤوس الأشجار الممتدة على جانبي الطريق إلى الأرض. وأعمدة النور تنشر ضوءها الباهت على سطح الرصيف، فتظهر خيوط من خلاله. أما أضواء الشقق فهي صفراء هادئة تبعث الدفء لدى رؤيتها.

كان يسير غير مبالٍ بقطرات المطر التي تطرق رأسه الحليق، ثم تتسلّ إلى رقبته متجاوزة قبة معطفه. حتى أنه اعتاد الشعور ببرودة الماء المتسلل من حذائه المثقوب لينخر أصابع قدميه. كلما سار في هذا الشارع تداعب ذاكرته رائحة دافئة فيسرع خطاه، ويدفعه الشعور بالفرح إلى القفز فوق برك الماء. ولكنه سرعان ما يشعر بالملل لكثرة وصعوبة تجاوزها جميعاً، فيبدأ بخبط قدميه فيها، محاولاً استثارتها قدر الإمكان، وما أشد روعة هبوط قدميه إلى الماء بعنف ليتطاير، محدثاً فجوات تزول فور صعود قدمه.

خلا الشارع إلا من بعض المارة المسرعين والذين كلما تجاوزوه أداروا رؤوسهم، "بحلقوا به"، ابتسموا وضحكوا.

مد لسانه لأحدهم، وتابع طريقه وهو يلوح بيديه محاولاً إبعاد المطر. فكر:

– كلكم سعادين ملونة.

داعبت الرائحة الدافئة أنفه بمهارة، وأقحمت نفسها في ثيابه فتوقف. كانت واجهة المحل أمامه كبيرة، مضيئة، تبعث الدفء ورائحة السكّر. راقب الناس المزدحمين من خلال الزجاج وألصق وجهه به، راقب الفرانين، والأهم من ذلك كله: فتحة الفرن.

ورأى كيف يخرجون صينية الكنافة محمّرة، حلوة، ساخنة فسال لعابه، وظل يراقبها إلى أن تشجع ودخل. ظل في البداية مختبئاً خلف الجميع إلى أن رآه الفران فابتسم:

– جمال.. ماذا تريد؟

أشار بيده نحو الكنافة.

– أأنا... أأنا..

وبينما كان الفران منشغلاً بتقطيع الحلوى، كان الجميع يبتسمون.

مد الفران قطعة الحلوى لجمال فخطفها منه، ورفع يديه إلى رأسه عدة مرات شاكراً، وخرج.

– سعادين ملونة...

التهم القطعة مستمتعاً بحلاوتها وسخونتها، متلمظاً، محاولاً الاحتفاظ بطعمها لدقائق أطول وكان سعيداً. ولكنه فجأة تذكر الأولاد الذين يضايقونه باستمرار، يركضون وراءه ويصيحون:

– يا جمال.. يا مجنون.. يا جمال.. مجنون..

بعضهم يظهر براعة في رمي الأحجار باتجاهه، والبعض الآخر يظهر شجاعة حين يتجرأ على الاقتراب منه وشده من ثيابه، يتفاخرون بذلك ويضحكون:

– يا جمال.. يا مجنون.. ألن ترينا حمامتك؟ يا جمال.. يا مجنون..

مجنون.. مجنون.. مجنون.. مجنون.. ويدوي الصوت في أذنيه فيركض صائحاً:

– يـ يـ يلعن.. أأبوكن.. عـ عـ عرصات..

كان المطر قد توقف، ولكنه استمر بالقفز فوق برك الماء. وعندما شعر بالملل، بدأ يُنزل قدميه فوق الماء بعنف ليتطاير، يلوح بيديه إلى أن أحس بأنهما جناحان، فحاول الطيران وهو يفكر بالسعادين الملونة.

القرض

كان يقوم بحسابات معقدة حين سمع الباب يفتح فهرع إلى الممر.

– هاه؟! ماذا قال الطبيب؟

– في البداية مرحباً ولكن ... ماذا جاء بك الآن؟ فالوقت مبكر على انصرافك؟

– لا شيء.. لا شيء. أخبريني أولاً ماذا قال الطبيب؟

دخلت الغرفة وتهالكت على الكرسي.

– كل شيء على ما يرام. لقد وصف لي بعض الأدوية والفيتامينات، وقال أنه يفضل أن أتناول بعض الفاكهة. فاشتريت كيلوغراماً من البرتقال.

عندها فقط أيقن أنها ما تزال تحمل الكيس، أخذه وذهب إلى المطبخ، ثم عاد ببرتقالتين لمّاعتين وسكين.

جلس مقابلها على الأرض وبدأ بتقشير البرتقال.

– لم تقل لماذا أتيت باكراً؟

– لقد باع أبي قطعة الأرض، وكنت أفكر.. – ناولها حزّاً من البرتقالة – أنه لو وضعنا هذا المبلغ في المصرف العقاري، سآخذه مضاعفاً بعد ستة أشهر، لأنني أيقنت تماماً أننا لن نستطيع شراء الشقة بثمن الأرض التي باعها.

– لا تضع قشر البرتقال في المنفضة، فأنا أكره ذلك..

كانت القشور بيده والبرتقالة والسكين بيده الأخرى، حين ذهبت حافية لتحضر الصحن.

– إنه حامض.

– أما تزال قدماك تؤلمانك؟

– لم أستطع أن أرتدي حذائي بسهولة حين ذهبت في الصباح إلى الطبيب. كانتا متورمتين.

ناولها حزاً آخر.

– لم لا تأكل؟

– أنا لا أحب البرتقال... منذ الآن.. هل اشتريت الدواء؟

– أجل إنه في حقيبتي. اليوم تنتهي إجازتي. سأذهب إلى المدرسة غداً.

– كنت أقول.. أقصد كنت أحسب مقدار القسط الذي سيتوجب علينا دفعه كل شهر.

– قسط ماذا؟

– أنتِ لستِ معي اليوم.. نضع ثمن الأرض في المصرف، وبعد ستة أشهر نأخذه مضاعفاً، بعد ذلك نشتري شقة صغيرة، ثم ندفع كل شهر على مدى خمسة عشر عاماً مبلغاً إلى المصرف. وبذلك نكون قد حصلنا على بيت... لنا..

– وكم يبلغ هذا القسط؟ هل أعطوا والدك السعر الذي طلبه؟

تجاهل سؤالها. أشعل سيجارة، وحين وضعها في المنفضة التصقت بها وتشربت عصير البرتقال.

كانت تراقبه بهدوء، غارقاً في حساباته وأوراقه وسيجارته بين أسنانه.

– وما أدراك أنه سيعطيك المبلغ؟

– لقد وعدني.

– أقترح عليك أن تفعل كما في السابق.. أشتاق لأهلي فأذهب لزيارتهم فتستغل الفرصة وتذهب لزيارة أهلك.. ما رأيك؟! لم تقل لي كم يبلغ القسط؟

– ألفان..

– هذا بالإضافة إلى قسط البراد وربما الغسالة.. ولا أقول التلفزيون.. هذا إذا حصلت على المبلغ.

– لا تعقدّي الأمور.. كل شيء وله حل.

تذكر البرتقال فناولها حزاً.

– كن واقعياً أكثر – قالت وهي تمضغ البرتقال الحامض مغمضة عينيها – سألد وآخذ إجازة أمومة، ثم شهراً أو أكثر بلا راتب، ولن أستطيع إعطاء الدروس الخصوصية إلى أن يبلغ عمر طفلنا سنة أو أكثر. وخلال عملي سأضطر إلى وضعه عند أهلي أو أهلك، هذا إذا قبلوا. ألا يحتاج الصغير إلى مصروف؟ والمبلغ المتبقي من معاشينا بعد حسم الضرائب والأقساط والفواتير لن يكفينا أسبوعاً.

سكتت فنظر إليها بعينين ضائعتين، فرآها تبتسم ثم تتحول ابتسامتها إلى نوع من الضحك الهستيري.

– بماذا تفكرين؟

– بقي معي خمسون ليرة فقط. ماذا سنأكل غداً؟!

صمت برهة ثم أجابها بهدوء متزن:

– ألم تشتاقي لأمك؟

الروح المنبوذة

تعجب كثيراً حين سمع عويل وصراخ أهل بيته. حاول أن يقول لهم أنه بخير وأن الألم قد زال، ولكنه لم يستطع. حاول القيام، حاول تحريك يده، لم يستطع. عندها أيقن أنه مات فذهل. لم يتوقع أن يكون الموت هكذا، كان يظن أن الموت نوم طويل لا تحكمه أحلام. حالة من السكون المطلق والهلامية، كالطيران في مجال فقد جاذبيته. قرر أن يصف الحالة لنفسه كي لا يشعر بالضياع فلم يقدر. لقد فقد السيطرة على جسده وهذا كل شيء. لم يعد يشعر بألم الجسد ولكنه قادر على الرؤية والسمع والكلام.

بدأت مراسيم الجنازة والدفن. كان مشتت الذهن فلم يشعر بالماء الساخن فوق جسده، ولا حتى بالماء البارد، بينما زوجته تصرخ وتحاول تمزيق ثيابها. ولا يسمع غير همهمات وهمسات:

– رحمه الله، رحمه الله، مرضه كان عضالاً. مات بهدوء.

شعر بالضيق حين كفّنوا جسده ووضعوه في التابوت استعداداً للدفن. كان يستمع إلى أحاديث الناس بإمعان حين ميز صوت جاره أبو خالد قائلاً لأحدهم:

– لقد كان مدينا لي بمبلغ......... تصور أنني كنت أدفع له نفقات العلاج، ولكن المال ليس مهماً طالما وعدتني أم إسماعيل بتزوجي من سعاد.

فكر في نفسه: هكذا هي الحياة فالإنسان لا يعرف الحقيقة إلا بعد أن يموت. الآن أيقنت لماذا كانت فدوة تعاملني بهذا الشكل، لقد كانت تريد أن تكسب الثواب بعنايتها بي، وتكفّر عن خطيئتها بتزويج ابنتنا لهذا العجوز. سأواجهها بالحقيقة في الدنيا الآخرة. هذا إذا اجتمعنا في المكان نفسه.

تساقط فوقه التراب فشعر بالكآبة لأنه لن يرى ضوء الشمس مرة ثانية. كان يستعيد لحظات حياته فيعبس مرة ويبتسم مرة أخرى حين فاجأه الملك. بدا عادي المظهر بلباس أبيض، يضع تحت إبطه دفتراً كبيراً، وقلماً خلف أذنه، ويرتدي نظارة سميكة العدسات، وبذلك يبدو شديد الشبه بموظفي الدوائر الرسمية.

– السلام عليك يا أبا إسماعيل..

– وعليك السلام.

– أعتقد أنك لم تشعر بوجودي. بم كنت تفكر؟

– بقدومك – شعر بالخجل لأنها الكذبة الأولى بعد موته – ولكن ألا ينبغي أن تكونا اثنين؟

ضحك...

– أجل ولكن زميلي مشغول قليلاً، فجارتك أم محمود توفيت اليوم بنوبة قلبية. والآن لننتقل إلى الموضوع الذي أتيت لأحدثك به.

– ألن تسألني الأسئلة المعتادة؟

– كلا فيما بعد ولكن.. – فتح الدفتر وبحث طويلاً ثم أردف – مدون في دفتري أن روحك لم تسكن أي جسد قبل جسدك. لا تتسرع بالسؤال سأوضح لك: هناك نوعان من الأرواح، الأول يصنف في مجموعة الأرواح التي تسكن الجسد وتبقى فيه لحين موته، ثم تُمنح فرصتين أخريين تتيحان لها الانتقال لجسد آخر، وفي حال فشلها في الفرصتين تعود الروح إلى الجسد الأول، وتبقى فيه ليوم القيامة. أما النوع الثاني...

– أنا لا أفهم حضرتك. بسط أكثر لو سمحت..

– حسناً، إن روحك تنتمي إلى هذا النوع الأول. أي لم تكن لروحك تجربة سابقة. والآن تستطيع روحك أن تخرج من الجسد، وتتقمص أي جسد آخر إن كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً. حسب الإمكانية المتاحة. أمامك الآن فرصتان متاحتان، فقد استنفذت الفرصة الأولى بحياتك هذه. ولكن لماذا أريك تفكيرك؟! حاول أن تخرج من الجسد...

– كيف؟!

– فقط اخرج وستحرر.

شعر بحرج ولكنه حاول القيام.

– انظر الأمور تسير بشكل جيد.

وزال شكه تماماً حين رأى جسده المكفن قربه.

– أعتقد أنني تحررت. لم أكن أظن أن الأمر سيكون بهذه السهولة. فأنا لم أتعود حالة الموت حتى الآن.

– حسناً، والآن لننتقل إلى الخطوة الثانية. بما أنك تحررت بسهولة، فأنت الآن قادر على الدخول بسهولة إلى جسد آخر. تحيا ما دام الجسد حياً، وعندما تموت تنتقل إلى جسد آخر، وعندما يموت ترجع إلى هنا.

– أرجع إلى جسدي هذا؟! كيف أعود ولي جسدان آخران؟

– هنا يكون الخيار لك. فأنت حر بالشكل الذي تريد أن تقابل فيه وجه ربك.

– فهمت، فهمت. وماذا بالنسبة للمجموعة الثانية؟

– هي المجموعة التي تفضل أن تبقى في جسدها الأول، ولا تتعرض للتجربة كي لا تخسر جسدها البشري. أقصد أن لا تتحول إلى روح هائمة.

– تقصد أن الأمر كله مغامرة أو مصادفة؟ كنت أظن أنني استرحت.

– لم يفت شيء بعد. تستطيع البقاء هنا، لا تغامر.

– لن أخسر أكثر مما خسرت.

– كما تريد. سآتي إليك بعد موتك الثاني. والآن وقع لي هنا لو سمحت.. – أخرج وصلاً من دفتره– والآن، إلى اللقاء، لأنني في عجلة من أمري.

واختفى قبل أن يتمكن أبو إسماعيل من أن يسأله سؤالاً آخر، ظل يحز في نفسه طوال أيام حياته الروحية الثانية.

* * *

خرجت روح أبو إسماعيل من قبرها، وأول شيء فكرت به هو الذهاب إلى بيتها، والاطمئنان على زوجتها وأولادها. دخلت الدار دون أن تطرق الباب أو تستأذن. دخلت من خلال الجدار، وأعجبتها الفكرة كثيراً فهي تستطيع دخول الأشياء بسهولة ودون ألم. كانت الزوجة ترقع قميصاً في الحديقة. بدت غريبة، وحين اقتربت منها همست في أذنها:

– فدوة.. فدوة..

فلم تسمعها. لمست غطاء رأسها فسقط، عندها بدت خصلات الشيب. فكرت الروح:

– لم تكن هكذا، أعتقد أن موتي كسر ظهرها كما يقولون. ولكن أين الأولاد؟

فُتِحَ باب الدار فرأت الروح إسماعيل، اندفعت إليه ولكنه لم يرها. كان يدخن.

– لم أكن أعرف..

صاح إسماعيل:

– هل معكِ نقود؟

نظرت فدوة إليه بهدوء ولم تجب.

– أقول هل معك نقود؟!

هزها من كتفيهما، فسقطت الإبرة ولم يسمع رنينها سوى روح أبو إسماعيل.

– لقد أخذت كل شيء، بعت كل شيء، ولم يبق سوى هذه الدار. بعها أيضاً إذا شئت فلا فرق عندي.

بدت عجوزاً، وتذكرت الروح كم كانت طيبة وجميلة فقررت أن تعرف الحقيقة. ذهب إسماعيل تاركاً الباب مفتوحاً، فدخلت قطة سوداء من الشارع واختبأت في حوض الزرع. وحين أغلقت فدوة الباب، خرجت القطة وهرهرت وهي تحتك بقدمي أم إسماعيل. صبت لها حليباً وأكملت ترقيع القميص. كانت روح أبا إسماعيل تراقب بهدوء، وعندما اقتربت، فزعت القطة. قوست ظهرها وماءت بغضب.

– هل ترينني؟ لماذا أنت غاضبة؟! هش.. هش.. اذهبي من هنا..

فوجئت روح أبو إسماعيل حين سمعت صوت أم محمود:

– اذهب يا أبو إسماعيل فأنا لن أعطيك هذا الجسد. لا تحاول. لقد وجدت الأمان في بيتك، ولن أتخلى عن حياتي فيه حتى ولو كنت قطة. بحثت كثيراً عن جسد أسكنه، ولم أجد سوى ما تراني عليه الآن. عندما يكون الإنسان إنساناً يصعب عليه التحول إلى مخلوق آخر. ولكن ماذا باستطاعته إن لم تكن هناك فرصة أخرى.

– أخبرني الملك أن الروح تقدر أن تسكن إنساناً.

– ها..ها.. لقد كذب عليك. أو لم يخبرك الحقيقة كاملة. فمثلنا لا يتاح له مثل هذا الشرف. إنه للأقوياء وذوي النفوذ. لا نجد أمامنا سوى الحيوانات والزهور. هذا كل شيء. وعندما نود الرجوع إلى جسدنا، نجد أحداً آخر قد اغتصبه، فنبقى مشردين هائمين.

خطرت له فكرة فقام بتنفيذها فوراً كي لا يندم بعد موته كما كان يندم في حياته. دخل جسد القطة التي تلوّت كثيراً، فقد كانت روح أم محمود شرسة للغاية، ولكنه في النهاية تمكن من طردها وانتهى كل شيء.

كانت فدوة تنظر إلى القطة الهائجة بفزع، وعندما هدأت، حملتها بين ذراعيها ومسّدت شعرها بحنان إلى أن هدأت تماماً.

خرجت سعاد من غرفتها شاحبة اللون:

– أمي.. لقد فكرت كثيراً. لا أريد الزواج بهذا الرجل.

شعر بالماء يتخلل وبره، كانت زوجته تبكي:

– لقد أخطأت منذ البداية. إنه ذنبي. إنه ذنبي.

صفق الباب بشدة ودخل إسماعيل ومعه أبو خالد.

زلقت الهرة من بين يدي فدوة، وقفت عند قدميها وهي تقوّس ظهرها وتموء بغضب.

حين اقترب إسماعيل من أمه، قفزت القطة وأنشبت مخالبها في وجهه، فرماها أرضاً ثم رفسها بقوة هائلة فاصطدمت بالجدار، ولم تتحرك.

أيقنت روح أبو إسماعيل أن جسدها مات للمرة الثانية، فقررت الخروج منه قبل مجيء الملك، أو بالأحرى لأنها كانت تشك في مجيئه. وأي ملك يأتي لقطة ليخبرها بالاحتمالات؟

كانت زوجته تمسك جسد القطة بيدين مرتجفتين، ثم وضعته في الحوض قرب شجرة الياسمين.

همست روح أبو إسماعيل في أذنها مرة أخرى:

– فدوة.. فدوة.. فدوة.. لا تبك.. أرجوك.

ولكنها لم تسمع.

كان يعلم أنها تحب الياسمين، فسكنت روحه الشجرة.

صارت رائحة الياسمين قوية جداً مما استرعى انتباه فدوة، فرأت الشجرة تكبر أمام عينيها والزهور تتفتح واحدة

تلو الأخرى، ثم تسقط على البلاط الحجري لتكوّن تلة كبيرة من الياسمين الندي. وبعد الظهر بدأت الشجرة بالجفاف والتشقق، ثم ذبلت.

خرجت روح أبو إسماعيل منها بعد أن تحولت إلى روح هائمة تدور حول فدوة وتطلب الغفران.

اللقاء

إلى رهام

فتشوا أشياءها القليلة بحرص. قلبوا حقيبة يدها، وتفحصوا الأغراض الموجودة في الكيس الأبيض بدقة. حصل أهلها على ورقة الزيارة منذ أسبوعين، ولولا ذلك لما استطاعت زيارته أبداً، على الرغم من أنها تأتي منذ عشر سنوات قاطعة البلد من طرف إلى آخر لتتمكن من رؤية زوجها.

لم يسمحوا للأغلبية بالزيارة بسبب حالة من توتر الأوضاع واستنفارها.

كان وجهه شاحباً وشعره أشدّ بياضاً من الزيارة السابقة. السجانون في كل مكان. مدت يدها في الفتحة الضيقة بين القضبان. بالكاد تلامست أصابع يديهما. جلسا. فقالت:

– متى؟

– لا أدري..

– أحضرت لك الصور. حاولت أن أنتقي أكثرها عفوية.

– كيف دراستها؟

– جيدة. فهي تفكر بك دائماً وذلك يدفعها للاستمرار نحو الأفضل، والأنقى..

– قوية؟

– أجل. كالشمس.

ارتفعت الأصوات وترددت الأصداء:

– بسرعة، بسرعة. ستنتهي الزيارة بعد خمس دقائق..

رفع صوته قلقاً، وحاول الإسراع في كلامه ليقول كل شيء:

– حفرت اسمها على بذرة زيتون، وهناك بعض الرسومات. كيف صحتك؟ وصحتها؟ أكل شيء على ما يرام؟ الجميع يبلغونك تحياتهم. كل أموري جيدة.

– بسرعة انتهت الزيارة. هيا.. بسرعة..

تلامست أصابعهما.

كان الهواء شديداً عندما خرجت من البوابة وهي تضم الرسومات إلى صدرها. حاولت الريح أن تمرح قليلاً فحملت الأوراق وطيّرتها في الهواء فاتحة باب السجن. ركضت في الباحة الواسعة تلم الرسومات. حاول السجان

مساعدتها ولكن الأوراق كانت تهرب من بين يديه وتطير. استطاعت جمعها جميعهاً إلا اثنتين، فرّتا من يديّ السجان، وحلّقتا فوق السور باتجاه حقل الألغام.

منى...."انكسارات طفل"

سحبها من يدها من أمام واجهة محل.

– هيّا..

– كلا، لا أريد. أريد أن أبقى أكثر.

– ولكننا نقف هنا منذ ربع ساعة. هيا، سآخذك إلى الحديقة.

ضربت الأرض بقدميها.

– لا.. لا أريد. أن أعرف كيف دخل إلى الزجاجة؟

– ألم أقل لك؟ لقد رُكِّبَ فيها.

– لا أصدق.

ابتسم.

– سنذهب إلى الحديقة قبل أن يهطل المطر.

– ولكن، ما رأيك أن ندخل ونسألهم كيف دخل إلى الزجاجة؟

– وضعوه وهو صغير ثم كبر. هيا.

ضحكا. وكان البرق يضيء السماء، وتلاه صوت الرعد فأغلقت أذنيها. ركضا. وكانت أولى قطرات المطر الكبيرة تتحطم على أحجار الرصيف.

– إنه المطر الأول.

– أما زلتِ تريدين الذهاب؟

– طبعاً. ألم نتفق؟

كان الشارع مزدحماً بالمارة فحاولا أن يتحاشيا الاصطدام بهم، ولكنهما اضطرا أن يبطئا السير، فاختلطا مع التيار ثم انحرفا إلى شارع فرعي.

– انظر! أليست جميلة؟ البيوت القديمة بأحجارها السوداء، وقناطر الأبواب، والنباتات التي تحطم أحجار الجدار وتنسلّ خارجة متدلية. وذلك المصباح القديم المثبت إلى الجدار! انظر كيف يبعث بنوره الأبيض فينير جزءاً من تلك الشرفة الخشبية، وكأننا في زمان آخر. كل الأشياء تبدو جميلة اليوم.

كانت تضحك وتنظر إلى الأشياء وكأنها تراها للمرة الأولى، تستكشفها، فتفرح لاكتشافها.

– لنسرع قبل حلول الظلام.

أمسك كل منهما بيد الآخر، ولوحا بيديهما، ثم جريا قفزاً، وبدا لهما الشارع خاوياً.

* * *

كانت المصابيح قد بدأت بالتوهج بوميض شاحب، وكان الباب الجانبي للحديقة مغلقاً، فتسلقا البوابة الحديدية متسللين إلى داخلها.

– الأراجيح!!

هتفت بفرح.

– ألم أقل لكِ؟

ركضت إلى الأرجوحة وجلست فيها، فبدأت رحلة الطيران. وكلما ارتفعت أكثر، شهقت من الخوف والإثارة.

– انتبهي. ستقعين.

– كلا. لن أقع.

صرخت وهي في الهواء.

– ربما انقطعت السلسلة.

– لا، لا يمكن.

– حسناً، كيف الحال عندك في السماء؟

– رائع! ألا تريد أن تصعد إليّ، إلى السماء؟

– كلا. سأعود بك إلى الأرض.

وأوقف الأرجوحة بقوة فقفزت منها وارتطمت به، بعد أن تطايرت قطع الطين اللزج ملوثة ثيابهما ووجهيهما. أخرج منديلاً ومسح وجهها. أبعد خصلات شعرها الرطبة التي التصقت به. وكان المطر يتحول تدريجياً إلى خيوط من الفضة تتسرب من منخل ضخم. سارا ببطء إلى أن وصلا إلى الباب:

– كان يمكننا ألا نتسلق البوابة، فالباب مفتوح.

– وكيف نصل إلى الأراجيح إن لم نتسلق؟

وتسلقت البوابة المفتوحة، فتلقفها في الجهة الأخرى وساعدها على النزول. وكان المارة ينظرون إليها ولكنها لم تر أحداً.

* * *

– أشعر بالجوع.

– لنذهب إلى البيت وسأتدبر الأمر.

ركبا المكروباص وكان المطر قد توقف. صوت أغنية تافهة يصرخ فيمزّق الآذان، والأضواء الحمراء تكسب السيارة "جوّاً رخيصاً" كالخمارات. الدخان يتسرب إلى الملابس الرطبة، والسائق يراقبهما من مرآته التي علّق بها مصحف صغير في غلاف من الخرز الملوّن، مزيّن بورود بلاستيكية وأعين الحسد. التصقت به تستشعر دفأه، ووضعت رأسها على كتفه مغمضة عينيها فغفت. سمعت صوته:

– توقف عنك.. لو تفضلت..

* * *

حين فتحت الباب، فاحت رائحة الرطوبة. أنارت الغرفة فظهرت الجدران ذات الطلاء المقشور يكشف خلفه عن الإسمنت الرطب.

– على الرغم من كل شيء أحب هذه الغرفة لأنني أرى دمشق – كلها – تحت قدميّ. أحب دمشق في الليل. أضواؤها كأضواء السفن التي كنا نراها في البحر. أتذكر؟

وكانت تخلع ملابسها المبتلة.

– سأغلي شايا وإلا ستمرضين.

كانت قد ارتدت كنزة صوفية.

– أجلس. سأغليه أنا.

لاحظ تغيّر صوتها فلحقها إلى الممر حيث كان يوجد المطبخ. أستند إلى الجدار وراقبها وهي تصنع الشاي. كانت صامتة.

– ألم تكوني "منى" الطفلة منذ لحظات؟ لم تغيرت؟ هل حدث شيء؟

– أتعبتني "منى". ترفض البقاء في داخلي طويلاً. وأظن أنها ستغادرني قريباً. لا أعرف، ولكن كل الذين أحبهم يغادرونني دائماً. أعتقد أن حظي السيئ هو ظلي، أراه في كل مكان ولا أستطيع التخلص منه إلا في الليل عندما يختفي القمر.

أسقطت ملعقة كانت في يدها، وعندما انحنيا لالتقاطها ارتطم رأساهما، فضحكا.

* * *

حين دخلا الغرفة جلست على السرير فأحست برطوبته.

– لقد تبلل. أعتقد أنني لم أقفل النافذة جيداً.

– ألا تشعرين بالتطهر حين تصطدم قطرات الماء بجسدك وتتسل إلى خلاياك؟ وكأن كل القذارة التي نعاني منها قد غُسِلَتْ.

– "منى" الصغيرة لا تشعر بالذنب أو التعفن، ولكن أنا.. لا أعرف. ولكنه إحساس جميل.. هذا خيال..

وبدأت دموعها بالتساقط إلى الفنجان الذي تمسك به.

– "منى" تغادرني فماذا أفعل؟ قل لي؟

– هل رأيت يوماً هجرة اللقلق؟ أسراب تحجب السماء بأجنحتها، تغادر إلى مناطق أخرى، تلامس السحاب، تلامس السماء فتصطبغ أجنحتها بالزرقة، ولكنها تعود.

– أتعرف؟ حين أتيت دمشق لأول مرة شعرت بأن الأرض التي وطئتها بقدمي هي أرض مباركة فشممت رائحة الياسمين. إما الآن فلا أشعر إلا بالقذارة.

– أعتقد أن الرمال أثقلته ولكنه رغم ذلك ينتظر المطر.

– ألا تريد أن تأكل؟

– كلا. لقد تذكرت أمي.

أشعل سيجارة ثم نفث دخانها على شكل حلقات. أدخلت إحدى يديها في الحلقة الدخانية. وقفت. لاحقت الحلقة بيدها إلى أن تلاشت، بعدها حاولت مع الحلقة الأخرى:

– أساور جميلة. أنها مَهري.

– عاد السنونو.

– أشعر بالنعاس.

– حسناً. سأذهب.

– كلا. أبقَ هنا.

– إذن، سأنام على الأريكة.

رشف من فنجانها الشاي البارد.

– أعطني السيجارة. أريد أن أصنع أسورة.

ناولها اللفافة. سحبت منها قليلاً ثم بدأت بالسعال فأطفأتها، وأطفأت النور.

كانت الغرفة مظلمة إلا من أشعة القمر التي تتسرب من خلال فتحات الأباجور.

– أتعرف؟ حين ذهبنا إلى البحر اكتشفت أنه لا يمكننا الاحتفاظ بزبد البحر. كلما جمعته بين راحتي كانت فقاقيعه تتفجر بسرعة هائلة، فيتلاشى ولا يبقى في يديّ سوى الملح.

لم يُجبها. فنامت وهي تكوّر نفسها كجنين.

* * *

استيقظ في الصباح قبلها فاستيقظت على صوت "قرقعة" صادرة من المطبخ. بعدها سمعت فوران القهوة فوق الغاز. شربا القهوة وهما يستمعان لفيروز. بعد أن انتهت من قهوتها، قلبت الفنجان ثم وضعت صحنه المليء بالطحل على حافة النافذة وبدأت بمراقبته.

– أليس غريباً أن يعكس طحل القهوة كالمرآة؟ أرى السماء، والغيوم، والعصافير، والشمس.

ومن النافذة المفتوحة دخلت ورقة صغيرة صفراء وسقطت في الصحن. جلس قربها وهو يدخن سيجارة:

– لماذا اخترت اسم "منى" للطفلة التي في داخلك؟

– حلمت اليوم بأنني أسير فوق أرض تصدر وهجاً أبيض. وفجأة نبت لي جناحان هنا– وأشارت إلى ظهرها تحت عظم الكتف – فطرت بهما نحو السماء. وحين تعبت من الطيران استرحت فوق السحاب قليلاً، تمتعت بلمسات الشمس الرائعة، شربت من قطرات المطر الباردة ثم سقطت من الأعلى. ومتّ.

– البارحة قبل أن أنام لم تقصي لي قصة.

– لا يمكن للطفلة التي في داخلي إلا أن تكون "منى". لقد كانت تعبة البارحة.

– أحب فيك "منى" ولكنني أخاف منها في نفس الوقت.

انتعل حذاءه وكان قد أشعل سيجارة أخرى واعتصرها بين أسنانه. كانت تزيل أقداح القهوة والشاي من فوق الطاولة، ثم ذهبت إلى المطبخ. سمع صوت الماء وهو يتدفق وكان قد ارتدى سترته. لحق بها وقبلّها فنفخت عليه بعض الصابون وضحكا.

– أراكِ اليوم.

– أراكَ اليوم.

خرج. سمعت صوت ارتطام حذائه بالدرجات وتلاشيه. حين خرجت من غرفتها راقبت الدرجات. حاولت أن تضع قدميها في الأماكن التي يمكن أن يكون قد داس عليها، وحين وصلت إلى أسفل الدرج لم تنتبه إلى رطوبته، فتزحلقت وسقطت. وبينما هي جالسة على الأرض لا تقوى على الوقوف، هبت نسمة هواء باردة، فبدأ الياسمين بالتساقط وأوراقه مقلوبة إلى أسفل، ليستقر في برك الماء الموحلة. خيّل إليها أنه لم يكن أبيض فتساءلت:

– لماذا لا يعود برعماً كما كان؟

عادت إلى غرفتها وجلست على السرير ولم تغادره حتى عندما عاد جالباً معه هدية. زجاجة وفي داخلها كرسي صغير، وضعها على الطاولة أمامها.

- هل ستغادر اليوم؟

أومأ برأسه.

- كنت أعرف. حسناً، أذهب.

- ولكن..

- قلت لك أذهب.

- لقد تقرر رجوعي الليلة. فاللقلق يعود.

- لا شيء يعود.

- سأبعث لك بالبرتقال.

- أذهب.

تردد. كان يعلم أنها ستطرده فخرج تاركاً الباب مفتوحاً. أمسكت الزجاجة وقذفتها بعنف نحو الجدار المقابل. تحطم الزجاج. خرجت من السرير وسارت حافية فوق الشظايا، أخذت الكرسي الصغير، وضعته على الرف، ثم كتبت في ورقة صغيرة: "كان هذا الكرسي مسجوناً داخل الزجاجة ولكن حين تحطمت.. شعر بنفسه عارياً". وألصقتها على حافة الرف تحت الكرسي ثم سارت بقدميها الداميتين نحو الباب وأغلقته.

العاشقان

حين دخلت الأم إلى الغرفة في الصباح لم تجد سوى زجاجة خمر، وكأسين لم يمّسا، وشمعة لم تشعل.

سمعت الشخير المتناوب في الغرفة المجاورة فقامت بهدوء وفتحت الباب الخارجي قليلاً. ذهبت إلى المطبخ متلمسة طريقها في الظلام. أحضرت زجاجة خمر وكأسين صغيرين، ولم تنس أن تحضر شمعة. ثم جلست قرب النافذة ترقب الطريق.

كان الضباب يغطي أعمدة النور فيعطي الضوء المنساب نوعاً من الهلامية الرطبة، وأسراب البط المهاجر تصدر نحيباً قلقاً.

تسرب البرد في ضلوعها فتكومت على نفسها وغفت. بين نوم ويقظة أدركت أن الباب يُنقَر، فقفزت باتجاهه وفتحته بحذر.

دخل إلى الغرفة مسرعاً وأغلق الباب. جلس على حافة السرير. ضم جسدها بلطف وغنّا همساً:

"يردلي يردلي سمرة قتلتيني

خافي من رب السما وحدي لا تخليني

أبوك يا أسمر حلو ما جا على ديني

أنت على دينك وأنا على ديني

صومي خمسينك وأصوم ثلاثيني"

فجأة لمع ضوء الممر. فتح الباب. السكون مطبق بصمت ثقيل. الكل نيام. هدوء إلا من لحن التنفس الرتيب المنتظم.

صوت هامس ينساب من السرير:

"وأعمل سلم من حرير وأصعد لأوضتك

وبوس خد اليمين وأحضن قامتك

وأفرش فراش الهنا ومخدتها زندي".

الجثة

لمع فجأة عندما كان يسير محاذياً لعمود الكهرباء. تابع سيره ثم توقف. عاد ليبحث عن بريقه فوجده عقداً بحبيبات ملونة مرصوصة يشبه المسبحة. تطلع نحو الأعلى حيث الضوء الفضي الشاحب يمدّ أذرع نوره ليداعب بدفئه البارد جسد الرصيف. قذف العقد في الهواء ثم التقطه ووضعه في جيبه. فكّر:

– سأنام اليوم. يجب أن أنام.

اتخذ قراره وأسرع باتجاه دكان "حبيب" القريب حيث اشترى بما تبقى من ماله أكبر زجاجة عرق، لم يكن أمامه خيار آخر. إما الصغيرة وإما الكبيرة. سجلّ في قائمة ديونه الطويلة علبتين من السجائر، ومشى ساحباً قدميه بتعب مفاجئ واضعاً الزجاجة تحت إبطه، محاولاً إطالة المسافة نحو بيته قدر الإمكان. سار في أكثر الأزقة ضيقاً وعتمة. طارد القطط. صرخ بأعلى صوته:

– أتسمعني يا رب؟ إن كنت تسمعني فأجب.

حطمه الصدى المرتدّ. هزّ أحشاءه ولكن أحداً لم يرد. فقط سمع سباباً آتياً من إحدى النوافذ التي أضيئت.

دسّ المفتاح في الثقب الصدئ. أداره نحو اليسار ولكنه لم يستجب. ضغط عليه دون فائدة. حاول إخراجه فلم يستطع، عندها ابتعد إلى الوراء قليلاً ثم دفع الباب بقدمه فتحطم الخشب المتآكل. دخل وصفق بقاياه وراءه.

سار في الباحة الرطبة ضاغطاً بحذائه العسكري الثقيل فوق الأوراق الصفراء الهشّة.

نظر إلى انعكاس القمر في ماء البركة. زج رأسه في الماء اللزج إلى أن أحسّ بالاختناق والتجمّد. انتفض. نظر في وجه الماء مرة أخرى فوجد قمراً آخر، منكسراً، هلامياً. فتح باب غرفته. أنار المصباح الأصفر. جلس على حافة السرير ونزع فردة حذائه. رماها إلى الزاوية ثم نزع الأخرى. تأملها طويلاً. كانت هرمة، وسخة وممتلئة بالطين. رمى بها إلى الزاوية الأخرى. ارتدّ إلى الوراء وسقط فوق سريره المعدني الذي صرّ بألم. غاص في جوف السرير. نظر إلى جوربه المثقوب ثم نظر إلى المصباح وأغلق عينيه نصف إغماضه. تذكر العقد. أخرجه وتأمله في ضوء المصباح. كان يلمع بنزق وكأنه يشاكسه. حبيباته مزينة بزهور دقيقة صغيرة. رماه قربه. أشعل سيجارة وفتح الزجاجة. صبّ ثلاثة أرباع كأس صغيرة وذهب إلى المطبخ ليحضر الماء. عندما أضاء النور تراكضت الصراصير في اتجاهات مختلفة. اتجه نحو المغسلة وأخذ زجاجة فارغة موضوعة على حافتها. فتح الحنفيّة ففحّت.

– إلى الجحيم.

وبصق بلغماً.

* * *

نزع سترته ورماها فوق الكرسي. شغّل الراديو. قلّب موجاته ثم أطفأه. رشف. أشعل سيجارة أخرى من العقب. أغرقه في المنفضة. رشف. استلقى فتضايق. أخرج العقد الذي أنغرز في خاصرته.

– الأحمق. يلعب معي.

رفعه على امتداد ذراعيه. كان يتلألأ بغنج دافئ.

– ترى كيف أضاعته؟ انزلق عن رقبتها. القفل معطّل.

لمس الحبيبات برفق فأحسّ بدفئها.

– عنقها دافئ. فسحة صدرها بيضاء. شعرها شائب. عيناها ضبابيتان تحيط بهما التجاعيد. تشبه أميّ.

سقط الرماد فوق المفرش. أنزل يديه. رمى عقب السيجارة. حبس العقد في قبضته.

– لا إنها صبية. وجنتاها متوردتان. شعرها؟ ربما يكون جسدها ممتلئاً.

تمطّى باتجاه الكأس. شربها دفعة واحدة.

– "كعبه أبيض".

عاد للاسترخاء.

– آخر مرّة لمست فيها امرأة متى؟ متى؟ نسيت.

ضرب براحته على جبينه.

– عام؟ لا. أربعة أعوام؟ لا. قرن..

ضحك. نظر إلى السقف فرأى جثتها الجافة مسجونة في نسيج عنكبوت. ارتجف. أيقظه الرعد، قطرات المطر التي تحاول اقتحام الزجاج فتتحطم بيأس، وصفير الريح المتسللة من شقوق النافذة.

– كم هي كريهة.

شرب من عنق الزجاجة فاحترقت أذناه وعيناه. أحس بأحشائه تبدل أماكنها.

– دمها كان مالحاً، مالحاً جداً، وكانت تصرخ وتتلوى. تتحداني.

دمعت عيناه. حاول التحديق في الجثة.

– هاهي آثار أسناني على رقبتها. مصصت دمها كلّه. ولكن يا لبشاعتها! جلدها مجعّد. عيناها غائرتان.

احترق. أمسك اللهب بجسده. تقلّب في الفراش محاولاً الابتراد به. بحث عن برودته دون فائدة. أحسّ بلزوجة في سرواله فجلس. بدأت القطرات باختراق خشب السقف العفن. هوت فوق وجهه. فوق الحذاء. فوق الطاولة. في الكأس الفارغة. فوق العقب المشتعل.

نظر إلى السقف فرأى جثة عنكبوت جافة تتدلّى في الشبكة معلّقة من إحدى ساقيها فبدأ يبكي. ثم تحول

بكاؤه إلى نشيج استمر حتى الصباح.

١٩٩٥/٧/١٥

فراشات تبحث عن وطن

– دمشق.. آه يا دمشق. كم أنت جميلة وحزينة.

ليل حار. أضواء تتبعث من الرصيف لتنير الأقبية الرطبة، والمقاهي مليئة بالغرباء الذين اجتذبتهم أضواء المدينة الكاذبة كما الفراش. واجهات تجذب العيون الجائعة، ودعايات لامعة لفنادق ومطاعم وعاهرات، ومسارح وسينمات. أضواء تومض. أضواء ملونة. أناس عميان لا يعرفون إلى أين يسيرون. يتزاحمون. يتدافعون. غرباء تائهون يبحثون عن وطن. لا يسمعون رنين أجراس الكنائس وأصوات المآذن. ماسحو أحذية يوطؤون بالأقدام. يحملون صناديقهم ويسيرون، يسيرون. أعقاب سجائر تسد مصارف المياه ولكنها تطير مع مرور سيارة مسرعة كادت تدهس ضريراً يقطع الشارع. سيارات تقتل بدخانها الهواء. تمنعه من دخول الرئتين المقروضتين بالحزن.

وفي مكان آخر أبنية مهجورة وحطام متراكم قرب الجرافات. صرخات وحشية تأتي من لا مكان فتصطدم بجدران الأزقة الضيقة التي تتناقل الصدى فيسري في شرايينها:

– دمشق القديمة تحتضر.

دمشق مدينة الحلم والسراب. كذبة كبيرة.

* * *

تابعت حركة صرصور على السقف. كان يمشي قليلاً ثم يتوقف محركاً قرينه الاستشعاريين باحثاً عن شيء ما، ثم يتابع المشي من طرف إلى آخر وكأنه ضل طريقه في مساحة السقف الواسعة. نظرت إلى وجه ابنتها النائمة قربها، كان تنفسها منتظماً فاطمأنت. عادت لتراقب الصرصور الذي أصبح فوق رأسها مباشرة وفجأة هوى. سقط على وجه الصغيرة. حاولت التقاطه بهدوء كي لا توقظها فتفزعها، وحين تمكنت منه كان يدغدغ طرفي أصبعيها بأرجله. ضغطت فسمعت صوت تحطم هيكله. وحين خرج جوفه الأصفر رمته وذهبت لتتقيأ.

* * *

جبال كظهر التنين تتابع وراء نافذة الباص. صحراء بيضاء مشقوقة بشجيرات شوك خضراء وسروات فتية. طريق متعرج يقطع الجبل الحليق وابنتها في المعقد قربها تلصق وجهها ويديها بالزجاج.

– ماما، ماما انظري بسرعة..

نظرت فرأت جثة كلب على جانب الطريق وأحشاؤه مدلوقة بجانبه.

– متى سنصل يا أمي؟

– هل مللت؟

– كلا. ولكنني أريد أن أرى البحر.

– سترينه. انظري إلى تلك الغيوم وكأنها خراف صغيرة. انظري..

اقتربت منها والتصقت بالزجاج:

– إنها ممزقة.

– بل مقطوعة بفأس.

حاولت أن تقرأ في كتاب ولكنهم وضعوا فلماً فلم تستطع التركيز. وحينها انتبهت لا بنتها الغافية على ركبتيها فراقبت المشاهد الملونة المتراكضة خلف النافذة.

– البحر..

– أين؟

وكان النوم ما يزال في عينيها البراقتين.

– هناك..

وأشارت إلى ما وراء الغابة على يسار الطريق.

– إنه صغير.

فضحكت.

– سنراه اليوم؟

– أجل..

* * *

– أمي، السفن!! كم تبدو صغيرة!

كان شعرها الكستنائي يتوهج ذهباً تحت أشعة الشمس.

جلست فوق الرمال ترقب ابنتها وهي تلعب بالأصداف وقطع البلاستيك. أمسكت قبضة رمل فانساب بين أصابعها ببطء وهو يطير مع الهواء. الشاطئ مزدحم بالمصطافين الذين يحجبون البحر، ورائحة تفسخ تأتي من مكان ما.

– أمي، أمي.. انظري.

وأتت حاملة بأطراف أصابعها نورساً ميتاً من جناحه.

– ارمه. ستمرضين.

ألقت به بعيداً نحو مجموعة يأكلون البطيخ ويرمون قشوره إلى ما وراء ظهورهم فنظروا إليها باستياء.

– أريد أن أخلع حذائي.

– لكن انتبهي وإلا دست على شيء حاد.

– كم هو كبير وأزرق. كلا. أخضر.

ضحكت واستلقت، بينما فرات تلهو بمراقبة آثار قدميها الصغيرتين على الرمال المالحة. تركض إلى البحر عند انحسار الموج وتعود زاعقة والزبد الفضي في أثرها. كان هدير البحر يشبه الأحلام فغفت وغطاها الرمل.

* * *

توقف الميكروباص عند عتبة الضيعة فنزلتا. ركضت الصغيرة فلحقتها وهي تنوء تحت حقيبتها الثقيلة.

– أمي، هل سنمشي طويلاً؟

وكانت تدور حول أمها وتسحب سترتها بإلحاح.

– أمي.. أمي.. ماما..

لم ترد.

– منى.. متى سنصل؟ لقد تعبت.

– قريباً يا حبيبتي. قريباً.

سنابل قمح تنبت على مدرجات صغيرة ضيقة يتخللها أقحوان قرمزي فتمتزج الألوان. صخور سوداء مشاكسة تنبثق على المدرجات فتزيدها ضيقاً، ورائحة السنديان والصنوبر تدخل الرئتين فتطرد الحزن المعتق. ظلال طويلة.

– سنسرع قليلاً فربما استطعنا رؤية الشمس وهي تذهب لتنام.

في طريقها قطفت أزهار برية لم تكن تعرف أسماءها، وصنعت أكليلاً ملوناً أعطته للصغيرة. وحين وضعته على رأسها سألت:

– كيف أبدو؟

– كملكة.

– ملكة ماذا؟

سألت بعفوية.

– ملكة النوّار..

ركضت باتجاه البيت وكان بانتظارها فاتحاً ذراعيه.

- عمو، عمو.. ماما تقول أنني ملكة النوّار..

- بل أنت فراشة حلوة، تعالي..

ورفعها عالياً نحو الفضاء ودار بها وهي تضحك برنين مرح.

* * *

جذور السنديان في الشرفة الواسعة تحطم الأرض الإسفلتية، وأوراق أغصانه تلمع جلناراً فتحجب شمس الغروب، بينما يختبئ الوادي في ندى الضباب الطفل. قباب بيضاء تشق الصخور وبيوت صغيرة متفرقة تتخللها طرق ضيقة تصعد الجبل المجاور.

- ماما.. انظري..

وأشارت نحو السنونو الطائر منفرداً بسرعة كبيرة مشكلاً حلقات واسعة. أحضرت والدته المته وجلسوا يثرثرون. بينما الصغيرة تقفز من مكان لآخر.

- ألم تتعبي؟

- لا.

حركت رأسها بالنفي.

- تعالي لأحبك. قليلاً؟

التصقت بوالدتها فداعبت شعرها المتموج ومشطته بأصابعها ثم ضمتها.

- كم تحبينني؟

- هكذا.

وفردت ذراعيها على اتساعهما.

فضمتها مرة أخرى.

- يا لك من مشاكسة. ألست نعسانة؟

- لا. عمو مازن.. ألن تحكي لي حكاية؟

- أنت هي الحكاية.

- إحك لي. أرجوك..

واقتربت منه واضعة راحتيها على ركبته متأهبة للسماع.

- حسناً. سأخبرك بشرط أن تذهبي لتنامي بعد أن أنتهي. اتفقنا؟

– أجل.

أجابت بخبث.

– كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصور والأزمان وحتى الآن نهر كبير جداً اسمه الفرات.

ابتسمت. وأرهفت السمع وهي تتسلق ركبتيه.

– نهر قوي، سريع، صاف وحنون ولكن حين يغضبه البشر يفيض، فيغرق حقولهم ومزارعهم. فتعاقبه الشمس حارقة ماءه ليتبخر، ويشكل غيماً يدور في أنحاء الدنيا ينزل مطراً يحيي الصحراء ويسقي الأرض، فيتغلغل الماء في باطن الأرض، ويغذي النبع فيتدفق الفرات من جديد. ويعود ماؤه إليه مهما سافر وهكذا إلى ما لا نهاية يظل خالداً.

– انتهت؟

– أجل..

– إنها قصيرة جداً. لن أنام.

– مشاغبة.

– ولكن، عمو؟ لماذا تعاقب الشمس النهر بينما عليها أن تعاقب البشر الذين يغضبونه؟

– هكذا هي الحكاية يا فرات.

– أليس لديكم نبع؟

– أجل لدينا. كيف حزرت؟

– لن أقول. إنه سرّ. خذني إلى النبع.

نظرت إلى أمها بطرف عينيها وأضافت:

– لو سمحت.

– لقد طلع القمر يا نوّارني. يجب أن تنامي فأمامنا سفر طويل.

فأصرت:

– لنذهب إلى النبع ثم أنام.

* * *

ضوء القمر يضيء الطريق الملتوية نزولاً إلى النبع، وخرير الماء البعيد المترافق بنقيق الضفادع يعطي شعوراً بارداً بالماء.

– عمو احملني.

فحملها وعندما وصلا إلى النبع كانت قد نامت، فعادا دون أن يشربا من مائه صامتين. اخترق السكون صوت طائر ليلي حزين رافقهم حتى البيت، وعند تخطيهم عتبته بدأت الثعالب بالعواء.

– الحمد لله إنها نامت. كانت ستفزع.

وضعت ابنتها في الفراش وغطتها. جلسا في الشرفة فنظرت إلى البحر المختبئ وراء أضواء الجبل، بينما أمه تسوّي صورة عرس مائلة على جدار الغرفة المقشور، وحين خرجت تنهدت:

– لقد نامت من دون عشاء. المسكينة.

– لقد لعبت اليوم كثيراً بالإضافة إلى السفر. الأطفال.. يحملون في أجسادهم طاقة غريبة وكأنهم يستمدونها من الشمس.

– لقد أكل الغبار كتبك. ألن ترتبها؟

فلم يرد.

– تصبحان على خير.

وذهبت لتشاهد التلفزيون.

* * *

كانت فراشة ليلية كبيرة تحوم حول المصباح الكهربائي. تصطدم به. تعمى بنوره فترتطم بالحائط، ولكنها تعود للدوران حوله مرة أخرى. تلتهب فتصطدم وتدور مرة أخرى وأخرى. إلى أن سقطت ميتة.

– أحياناً أفكر بأننا نشبه هذه الفراشة. نتجه نحو النور. نحوم حوله ونحن نعرف بأن نار ضيائه ستحرق أجنحتنا.

– لقد زادت سوداويتك.

قالها ببطء بعد سكون وهو ينظر إلى الأرض محاولاً منع نملة سوداء من المرور فوق حذائه.

– أما أنت فمتصوف ولم تكن كذلك. فهروبك لن يطول. سيأتي شخص ما في زمان ما ويسحبك من ذاكرتك ليرميك على حلبة الواقع فتتحطم عظام حوضك.

وكانت بداية عصبيتها ظاهرة.

– لقد تغيرنا. كبرنا. وهذا كل ما في الأمر.

وببروده زاد من استفزازها.

– نحن جيل وعى العالم وهو ينكسر. نحن جيل انكسارات. كل شيء في زماننا تحطم، فقررنا أن نحيا على حطام آبائنا. كل شيء قد تحطم وقطعت طريق العودة. تقول أنني تغيرت؟ لا. لم أتغير كثيراً. لم يعد فيّ شيء ليتغير. لم يعد هناك مجال أوسع لتلقي الصدمات. صدمت بالطلاق. ولكنني كنت أتوقع رحيل سامر منذ اللحظة التي تعرفت فيها إليه. كنت أعرف أنه سيغادر. وإلى أين؟ هاه؟ ليبحث عن وطنه الضائع. لم يكن يريد

أن يصدق أنهم باعوا وطنه السليب. باعوا جميع القضايا حين بدؤوا بمفاوضات السلام. سخروا منّا ورموا آخر قضية عرض في هاوية لا قعر لها. مليئة بغبار التاريخ وعفونته. بالقذارة و.. لا أعرف ماذا. وكلما تحركنا إلى الأمام اعترضونا وشهروا في وجوهنا شعارات الأخلاق والقيم والدين. ماذا بقي منها؟ لا شيء.

ولكن سامر أفضل منك. فهو ما يزال يبحث عن شيء. أما أنت فحطام.

أشعل سيجارتين وأعطاها إحداهما. امتصت أحشاءها ونفثت الدخان أساور فضة وهي تبتسم ناظرة إلى القمر النائم مرتكئاً غيمة شفافة.

– روح لينا تتمزق وتمزق روحي معها. لقد رحلت هي أيضاً. رجعت لتبحث عن ذاتها في بيت والديها. بعثت فيها الأمل ففاقتني قوة وشجاعة ومرونة. تعرفين كم أحن إلى البحر؟

– هكذا..

وفردت ذراعيها على اتساعهما فضحكا.

– كيف سأربي ابنتي وأنا أبحث عن وطن؟ أبحث عنه في الله، في البحر، في إنسان، في مكان. دميت قدماي وأنا أبحث. أريدها أن تملك وطناً – تنهدت وتوقفت لثوان – أحياناً أقسو عليها لطيشها ولكنني أتساهل فيما بعد. أشفق عليها فهي بلا أب. بلا وطن. جيل أهلها لم يملك وطناً. وهي تسير واضعة قدميها الصغيرتين فوق خطاهم الكبيرة.

– الوطن كالبحر. يجمعنا، يغدر بنا، يحرك موجه زورقنا المثقوب من مكان لآخر. ونحن قوم بلا مجاذيف. من الجنوب إلى الشمال، من الشرق إلى الغرب، وتختلط الجهات فنتوه، وإدراكنا لا يسعنا لمعرفة أن الوطن سجن كبير قضبانه تحتل كل الاتجاهات.

– وطن كرماد سجائر..

رمت سيجارتها أرضاً وتركتها تنزّ.

– ظننتك تملك وطناً. لكن شفافيتك منعتك من احتوائه.

– هل تساعديني في تحضير العشاء؟

دخلا إلى البيت والضباب قد بدأ بمداعبة سفوح الجبل وأوراق السنديان.

* * *

كانت يد الصباح تسرق نوم الأقحوان حين استقلتا الباص من جديد. إلى الشمال، عبر مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة حيث حقول واسعة من قمح أسمر لم يتم حصاده بعد، يرتجف من لمسات الريح فيتموج.

– أمي.. لماذا تركنا عمو سامر؟

سكتت لبرهة:

– لأن وطنه الذي حمله يحتاج إليه.

– لِمَ لا تتزوجين من عمو مازن إذن؟ أليس صديقك؟

ضحكت:

– ولماذا تريدين أن أتزوج؟

كانت تقرض "عِرْقَ ملح" في إصبعها الصغيرة:

– لأن الكل لهم آباء. أنا أحب عمو مازن. وعمو سامر.

ماما.. أجيبيني..

– حبيبتي.. عمو مازن يحب الخالة لينا..

– لماذا لا يتزوجان؟

– لأنها لا تعرف بعد إن كانت تحبه.

– ومن تحب؟

– تحب البحر أكثر منه.

– لتتزوج البحر إذن.

ضمتها فشمت رائحة الحليب في عرَقَها.

* * *

شمس آب الغاضبة تصهر معدن الشاحنات المتكاسلة منذ زمن طويل بانتظار دورها في إفراغ حمولتها. الشاحنات تمتد على جانب الطريق برتل طويل يكاد يصل الأفق، حيث يغرق آخره في بحيرة من السراب المتحرك. أصابع الشمس تتخلل الرأس لتسحق الخلايا الدماغية بمتعة سادية، ورائحة الإسفلت الملتهب تخز الأنف بشدة. جموع من النساء المسنات والشابات والأطفال يقرفصون على الأرض الترابية قرب الشاحنات منهمكين بجمع حبات القمح النحاسية المغبّرة المتساقطة من حمولة السيارات.

وبعد انتهاء الرتل بساعة ونصف لاح الفرات وراء تلة ترابية. سطحه أزرق فضي، شفاف، نقي، صاف، حنون. أحست بأنفاسه فشعرت بشيء يشبه الوطن، وكانت فرات تغفو على ركبتيها.

١٩٩٥/٥/١٧

أقرب إلى النجوم

كانت الرائحة النتنة قد أزعجت الجيران لعدة أيام، وحين ضاق صبرهم قرروا أن يبحثوا عن مصدرها. تشمموا جيداً فتذكروا أنهم لم يروا العجوز منذ زمن طويل. دقوا باب داره فترة طويلة، وحين يئسوا قرروا الاتصال بأحد أولاده. وحين فتح الباب اندفع الجميع يبحثون عنه في الغرف، في الحديقة، بين أشجار النارنج، قرب البحيرة الصغيرة. إلى أن تذكر ولده أن أباه كان يحب الجلوس على سطح الدار. صعدوا السطح فوجدوه هناك، سانداً ظهره إلى الجدار وأرجيلته بجانبه، والقمر المستدير ينير تقاطيع وجهه بلون أخضر، وأضواء المصابيح في الجبل العالي تختلط بلمعان النجوم الصغيرة في السماء، مكونة صورة جميلة لسجادة مخملية سوداء مطرزة بالخرز البراق.

كان أقرب ما يمكنه إلى النجوم.

التابوت يتمايل بفرح على الأكتاف. يتراقص وهو في طريقه إلى المقبرة الواقعة على سفح الجبل. قليلون من حضروا الجنازة التي لم تكلف كثيراً. وضعوه في التراب، قرؤوا الفاتحة، بكوا قليلاً وانتهى كل شيء، أو اللاشيء.

في ذلك اليوم كان العجوز جالساً على سطح الدار كعادته. ظل هناك حتى المساء، فقد كان يجد صعوبة بالغة في صعود الدرجات ونزولها. أقبل المساء والعجوز مستغرق في تأمل السماء والاستماع إلى ضجيج الأطفال. كان ينتظر أن يدق الباب. يسمع دقات، يتلهف، يحاول القيام ثم يدرك بأسى أنه قد أخطأ. قلبه يدق، وأبواب الجيران تُدَقّ ولكن بابه يظل صامتاً. فجأة أحس بيد باردة توضع على كتفه، وصوت مألوف يهمس في أذنه:

– أما حان الوقت أيها العجوز؟

رأى وجهاً كان على وشك نسيانه.

– أهلاً. ولكن كيف دخلت؟ لم أسمعك تطرق الباب؟

– ما بالك أيها الصديق؟ أنسيت أنني لا أدق الأبواب. بدأ الخرف يؤثر فيك. ولكن هل تتذكرني؟

حملق العجوز طويلاً بالوجه وأرتعش:

– آآ.. أهذا أنت يا أبا العز؟ كنت أفكر فيك ولكنك فاجأتني. لم أتوقع أنك ستأتي لزيارتي قريباً. ولكن ألا ترى أن الوقت غير ملائم؟ فأنا لم أستعد بعد.

– أراك تخليت عن الرسميات أيها العجوز وتناديني بأبي العز هكذا فقط.

– وماذا تريدني أن أقول لك: السيد أبو العز؟ أم..؟ ألم نمض عمراً كاملاً معاً؟ أربعون عاماً وأنت تريدني وأربعون عاماً وأنا أستمهلك، ولا تسمي ذلك عمراً نستطيع بعده أن نتخلى عن الرسميات.

– أراك متفائلاً يا عزيزي! ولكن هذه المرة ستذهب معي فراحتك في الموت. أمثالك يتمنون الموت ليحصلوا على قسط من الراحة.

– وما هي الراحة في مفهومك؟ اخبرني.. أن تقضي روحي بقية حياتها في حفرة ضيقة، رطبة ومعتمة وهي بانتظار لقاء وجه ربها الصبوح؟

كفاك.. كفاك. اجلس وخذ نفساً من الأرجيلة وستغير نظرتك. انظر إلى هذه السماء وتلك اللآلىء البراقة. مدّ يدك وستشعر بملمسها بين أصابعك.

– لم تغير عادتك. دائماً تلهيني بالكلام معك فأنسي ما أتيت لأجله.

جلس المَلك بجانب العجوز وسحب نفساً طويلاً من الأرجيلة. تنهد:

– حملت معي طفلاً منذ لحظات. ما أن غفت أمه حتى أخذته. لم أستطع أن آخذه من بين يديها عندما كانت تحاول إرضاعه. على فكرة أيها العجوز.. أتذكر المرة الأخيرة التي جئت فيها لأخذك، عندها كنت تجلس هنا، في هذا المكان، عند طلوع الشمس تراقب سيقان تلك المرأة جارتك وهي تشطف أرض الدار. وكنت ترشف العرق مشرباً بالشهوة.

قهقه العجوز.

– أتذكّر حينها أنك جلست معي. صببت لك كأساً وراقبناها معاً إلى أن صحا زوجها وخرج إلى أرض الدار ليشرب قهوة الصباح.

– عندها غضبت المرحومة زوجتك. فهي على ما يبدو كانت تعرف عادتك جيداً. ألست مشتاقاً لرؤيتها؟

– لو كانت تحبني لما قبلت الذهاب معك منذ عشر سنوات. ولكن أعتقد أنها ملّت منّي وأرادت الراحة. الراحة لأمثالها يا أبا العز أما أنا.. ماذا أقول.... أحب الحياة. أعرف نفسي مجنوناً لأقول هذا لك ولكنني أحب الحياة.

– تحاول أن تلهيني. ولكن هذه المرة لن أذهب دونك. ربي يهب الحياة وأنا آخذها. فلندخن الأرجيلة ونذهب.

ظل العجوز صامتاً وهو يمتص دخان الأرجيلة بعمق. أخذ الملك نفساً فانطفأت الجمرة.

– هل أنت مستعد؟

– أعتقد ذلك. لا أريد إرجاعك خائباً. قضيت عمراً طويلاً وأنا انتظر أن يدق الباب ولا أحد، على الرغم من ذلك حاولت وسعي أن أتمتع بجمال هذا الكون. أن أسرق لحظات السعادة. أعلم أنني سأحاسب على عدم قناعتي ولكنني راض، لنذهب فأنا مستعد.

وقف بصعوبة وهو يبتسم فمد الملك يده إلى صدر العجوز. تخللت أصابعه دون ألم الأضلع الهشة إلى أن وصلت إلى القلب الدافئ الهرم. وضع يده الباردة عليه فتوقف.

الخرز الأزرق

في يومٍ ربيعيٍ ماطرٍ، ولد مهر صغير هجين. وبعد أن نظفته أمه بلسانها الخشن حاول الوقوف مباعداً ما بين قوائمه الهزيلة. ترنح وسقط، حاول مرّة أخرى وأخرى إلى أن استطاع السير بشكل مضحك وبريق الانتصار يلتمع في عينه العسليتين الكبيرتين. خفق برموشه الطويلة ناظراً إلى أمه فشجعته بصهيل متعب.

بعد أيام صار المهر يخرج إلى الحقل الندي، يركض بين نبتات الفول محاولاً اللحاق بالفراشات البيضاء، يحاول الابتعاد عن خياله الذي يلاحقه دائماً أينما ذهب. وبعد أن يتعب من اللعب يرضع من صدر أمه وينام. حينها يكون الظل قد اختفى.

عندما كبر المهر قليلاً شاهد الرجل يضع على صدر أمه عقداً لامعاً من الخرز الأزرق والأحمر، ثم يثبّت السرج ويقودها بعيداً عنه، فتغيب النهار بطوله وتعود في المساء متعبة متهالكة.

كان اليوم مثلجاً حين انتظرها طويلاً ثم نام في الحظيرة وحيداً، حالماً بالفراشات البيضاء ونبتات الفول الطرية اللذيذة. وفي اليوم الثاني داعبته ذراع الشمس الباردة فصحا. كان يمرن قوائمه القوية عندما دخل الرجل وبيده طوق الخرز الأزرق، ولما وضع السرج على ظهره شعر بشيء غريب يعتصر أحشاءه، وأحس بأنه يفقد شيئاً. ولكنه حاول الاعتياد على الثقل الذي يحمله.

وبعد أيام ثبت الرجل عوارض خشبية إلى سرجه في طرفها الآخر عربة لخزان المازوت.

الصور تتلاحق بملل وتشابه حتى أنه ما عاد يحلم بالفراشات البيضاء والسهول الخضراء اللامنتهية. يجر العربة بخنوع ماراً بالأزقة الضيقة والشوارع الوسخة. الرجل يصرخ:

- كاااااز.. مازوت..

من الصباح إلى المساء والسرج يخدش. العوارض الخشبية تحتك بالجسد، السوط يلسع وعقد الخرز الأزرق يخشخش بصوت هامس.

وفي يوم فُقِد تاريخه عاد إلى الحظيرة ليجد فيها فرساً بيضاء هجينة مشعثة العُرف، متهدلة البطن. صهلت مرحبة به بحياء. اقترب منها فشم عطر التبن. تعود رؤيتها وحين عاد في مساء ما لم يجدها، فعاد يحلم بالفراشات البيضاء.

تقرّح جسده من اصطدام العوارض الخشبية بجوانبه. كان يسير في شارع مزدحم ضيق شاقاً طريقه بصعوبة بين جموع النمل الملونة، ولكنه رغم تشابه الوجوه لمح طفلة صغيرة هزيلة لفتت انتباه عينيه الحذرتين. كانت تسحب جرّات الغاز بيديها المعروقتين من طرف الشارع إلى الجهة الأخرى منه منهمكة في العمل، دون أن تنظر إلى أحد.

أحس بشيء غريب يُسَمِّر قوائمه ويثّبته بالتراب. لسعه سوط ثم آخر وآخر فلم يتحرك. نزل الرجل والسوط

بيده وظل يضربه إلى أن تمزق الطوق وتساقط الخرز الأزرق.

١٩٩٤/٢/١٠

بين مد وجزر

العام الأول....... والثاني

– اسمك حزين.

– عندما أسماني والدي "شتاء" كان الضباب كثيفاً. خاصمته أمي أيام عدّة ولم تعد إلى البيت شتاءً كاملاً، لا لأجل خاطره، ولا لأجل خاطر أمه العجوز الخرفة. فقد آمنت منذ البدء أن هذا الاسم سيكون استمراراً لرحلة شقاء طويلة.

ولكنني أحب الشتاء.

– أنت كالرماد. شاحبة دائماً و باردة.

* * *

"بديت القصة بأول شتي

تحت الشتي حبوا بعضن

وخلصت القصة بتاني شتي

تحت الشتي تركوا بعضن

حبوا بعضن تركوا بعضن"

ولكن القصة لم تنته... كانت البداية فقط.

* * *

كان المطر جواباً شافياً حين سألها المجيء.

– لم أذعن لإلهي فلم أرضخ لك؟

– لأنني تخطيت عصور الظلمة وهرعت إليكِ أنشد قصائدك القديمة.

– ولكنها بليت.

– لا يهم. فقط حين يصير الصبح فراغاً لا ينتهي عندها لن أعبدك. خلتك شبحاً يجتازني كما تفعل الأجساد في الأزقة الضيقة، ولكنكِ التصقتِ بذاكرتي.

– تنبأ الغيم بعدم استطاعتك الابتعاد عني مهما حاولت.

* * *

العام الخامس

قال:

– أريد شمساً.

– أنا رماد الشمس.

– أريد شمساً حقيقة.

– إذن ابحث عن رمادها المنطفئ في قاع البحر.

لبست معطفها استعداداً للرحيل في شارع ضبابيّ.

– انتظري.

– لا. أريد الضباب. أحب قطراته المتكاثفة التي تلامس وجهي بحنان كقبلك. أحبه لأنه يشبهني. رمادي مثلي. يموت حين تلامسه الشمس.

– لهيب الشمس المتواصل لمئة عام لن يكفي لإذابة الصقيع في داخلك.

وسد بجسده باب الخروج.

* * *

وقفت عارية أمام المرآة فرأت وجهاً شاحباً. لمست بأطراف أصابعها التجاعيد الدقيقة الجديدة عند طرفيّ عينيها. حاولت تسويتها بشدها. سألته:

– لماذا أبدو هرمة كالشتاء؟

– لأن في داخلك أوراقاً صفراً جافة يحولها قلبك المتقد ثلجاً إلى رماد.

اقتربت من النافذة ورسمت بإصبعها أمواجاً فوق الزجاج المتعرّق.

– أحب الخريف وأعشق المطر.

في ذلك العام ترك أشياءه الصغيرة في زوايا البيت، فبكت غيوم الخريف الأولى مطراً لفراقهما.

* * *

العام....

عاد. وأضاف إلى أشيائه الصغيرة أشياء أخرى.

– لماذا تغضب كلما بحت لك بحبي للشتاء والخريف؟ أتعتقد أنني أستطيع التوقف عن حبك حتى وإن لم أقل "أحبك"؟

كيف لي أن أنسى أنني اختبأت بأحضانك لحظات كنت فيها كطفلة ملّت كل الألعاب التي بحوذتها، وهرعت

إليك لتطفئ ظمأها بممارسة طقوس آخر لعبة كانت قد تعلمتها وعندها فقط نَمَتْ؟

فكرت كثيراً لمن أهدي صمتي الطفولي فلم أجد ضلعاً يتسع لأن يضم بين خلاياه طفلة شاخت ولكنها لا زالت طفلة. فأضلاع البشر أقفاص تنقض على رئتيّ الصغيرتين وتمنعني من التنفس. إلا أنت. لم أطلت الغياب؟

– لن تهرمي بعد اليوم لأنني بجانبك زمن ثابت لا يتغير. لا أزال أعشقك كاللحظة الأولى في ذلك اليوم الماطر.

* * *

ولجت الشمس الخريفية الباردة رحم الله البحر بسرعة كبيرة فاحترق الأفق.

سمَعت خشخشة الزبد.

– زمن من قصدير.

– كلما أحسست بقربي منك تتلاشين كالزبد. لا أستطيع الإمساك بك لأنك تذوبين كالطيف.

انظري! شهاب يهوي.

– تمنى أمنية. بسرعة..

– تمنيت.

– تذكر الأغنية التي تقول "البحر بيضحك"؟!

– .....

– لا أستطيع سماع شيء سوى الأنين.

– الأنين في داخلك وعندما يضحك رمادك يبدأ البحر بالابتسام ثم الضحك. بم تفكرين؟!

– أترى ذلك المزار؟ سنذهب هناك صباحاً وسأطلب من الشيخ أن يكتب لكَ حجاباً من شِعر يردعكَ عن ممارسة الحب مع نساء غيري.

ضحك.

– كنت محقة. لن استطيع الرحيل.

أتعرفين ماذا تمنيت؟

– ....

– تمنيت أن نبقى دائماً هكذا كالبحر.

* * *

واستغرقا في حبٍ رطبٍ استمر سنوات بعدد أوراق الخريف الصفراء المتساقطة، بينما نجيمات الدب الأكبر في الأفق اللانهائي تغرف بكوزها المنحي من مياه البحر الليلية السوداء.

ذرة غبار

نظرت عبر النافذة فرأت قطع الثلج المتراقصة تندفع باتجاه الزجاج لتلتصق به. حدقت ببلوراته فتراءت لها أضواء الجبل. بحثت عن الجبل فرأته ما يزال في مكانه كما كان، متلفعا بالضباب الرمادي المزين بنجميات صغيرة ملونة ودافئة.

تسلل الماضي إلى الحاضر. صُدَفٌ تحمل الماضي في جيوبها وتخرجه كولاعة لإشعال سيجارة. وسجائر لا تنطفئ وولاعات تُخرج من الجيوب لتضيء الماضي ثم تطفئه، ولكن وميضه يلتصق بذاكرة العيون.

– لم لا تحن أصابعك الخشنة على جسدي كما تحن على جسد العود؟ لم لا تلمس روحي كما تلمس روحه حين تسمع صوته وتعرف أنه يئن من الرطوبة؟

فسمعت صوته مندفعاً من قاع النسيان:

– لأنني أشعر أن العود أكثر وفاء من أي امرأة. فمهما بعدت عنه ومهما هجرته يعود فيستجيب لي ما أن ألمس أوتاره مرة أخرى، ولا يجافيني مهما طال فراقنا.

مطر دمشقي حزين يحاول غسل أدران المدينة، وقطة ملونة تسير فوق السور مبللة. سحب رمادية تهبط على أسطح المنازل راغبة في سرقة قليل من الدفء وبرد ينخر العظام، وهي تقبع في السرير مهزومة تستمع إلى صوت الشخير وتحدّق بعينين فارغتين نحو السقف.

استيقظ في الليل وناداها:

– منى.. هل أنت نائمة؟

– ...

واستلقى فوقها. وعوضا عن الرعشة، يتسلل من أطراف أصابع القدمين خوف ووحدة قاتلة ليجتاحا الدماغ والقلب. وأناس كثيرون يخطون بأقدامهم الثقيلة فوق الذاكرة، ويمرون بسرعة تاركين آثار خطواتهم مطبوعة بعمق على جدران الدماغ.

رأت جدرانا كتب عليها "نعم للمقاومة"، "كلنا للجنوب" وحين اقتربت منها شمّت رائحة بول متخمّر.

دخلت لتستحم فرأت بقعاً زرقاء تلطخ جسدها. لبست ثيابها دون خجل، وكأنها فعلت ذلك مراراً أمام أعين رجال آخرين كثيرين جداً، وسخرت من نفسها حين أخبرته أنها تفعل ذلك لأول مرة، أنها تخلع قميصها للمرة الأولى، وترتدي بنطالها أمام رجل للمرة الأولى.

– كلهن يقلن ذلك لي.

ورنت ضحكته الساخرة في أذنيها فأدركت أنه لا يصدقها.

والمدينة بغي تختبئ في ثياب قديسة وقديسة تتقنّع بقناع عاهرة، وهي طفلة تشعر بالعهر داخلها وامرأة هرمة تعبت من الانتظار. انتظار النهاية أو البداية.

* * *

كانت تعرف أنه هذه اللحظة يعانق المرأة الأخرى. ربما هما مستلقيان، هو من ناحية الجدار وهي قربه. يضمها فينام ويستيقظ في الليل من كابوس.

– لا تخف. نم. أنني قربك.

تمسّد شعره لينام وتغني له:

– "أتاخذني معك فأكون خاتم قلبك الحافي..

أتاخذني معك فأكون ثوبك في بلاد أنجبتك لتصرعك

وأكون تابوتاً من النعناع يحمل مصرعك

وتكون لي حياً وميتا؟"

فلا يجيب لاستغراقه في النوم.

جسد تلك البغي المستلقية على سفح الجبل يعبق برائحة رجال كثيرين مختلفين، ولكنها حين ترتدي الضباب الأبيض عباءة، تتحول رائحتها إلى مزيج من البخور ورائحة الصباح.

رائحة عريّه كالصابون. تستمع إليه بينما يحدثها عن الذين اغتيلوا، يخبرها عن الهزيمة والدم وعن الأرض، وعن قطع الغيوم التي تشبه أرضاً محروثة، وعن البحر الذي يتحول إلى صفيحة معدنية ملتهبة عند الغروب. ثم يستلقي مهزوماً وتعباً.

تضع يدها على صدره فتنتقل ضربات قلبه المضطربة إلى دمها.

الصور الجدارية تتملّى عريهما، فتندس تحت اللحاف متذرعة بالبرد. المرأة الأخرى تخاف عليه من ظل نسمة، أما هي فمما تخاف عليه؟

أنها الآن معهما في الغرفة، ذرة غبار، تتأمل حنينه إلى المرأة الأخرى. تتمنى لو تعرف بماذا يحلم؟ ولم يتقلب في الليل؟ حتى حين يكون قربها تغزو المرأة الأخرى أحلامه.

* * *

عانقت بنظرتها فضاء المدينة فأحست به يضغط عليها. دمشق لا تسعها. تضيق بها. تخنقها. رأت سرباً من الغربان الضخمة وسمعت نعيبها وصوت الماء يقطر:

– تك.. تك.. تك..

حاولت أن تسمع صوت خطوات تصعد الدرج. برد وفراغ ووحدة، وانتظار دقة باب أو رنة جرس. استلقت لتحاول استحضار النوم ولكنها حين شمت رائحة عرقِه في الوسادة أجهشت بالبكاء. ولكن باب الغرفة فتح فجأة ودخلت فرات قفزاً بجدائلها الطويلة وعانقتها باحثة عن دفء المنى.

فهرس